

Samedi 29 Octobre 1977 - 1<sup>er</sup> anniversaire, No. 26.

# العرب الغائبون عن البحث العلمي أموالهم تدور خارج التنمية

يقلم الدكتور انطوان ايوب (●)

العلمي في المفهوم المتعارف عليه والمألوف لهذا المجال.

ع - الحرية والمسؤولية الاجتماعية - من نافلة القول التأكيد ان لا ابتاع من دون حرية في الفكر والتعبير. وان التناقض هذه الحرية تحت شعار الدفاع عن المسؤولية الاجتماعية يقود مباشرة الى حالة تعقيم اجتماعية تقود بدورها الى العدم ويسلاسل غير مرئية، الاجيال العربية المقبلة. فالمجتمع الحر وحده كفيل بمراقبة الباحث ومحاسنته تجاه مسؤولياته الاجتماعية. اما حين يناظر امر الدفاع عن هذه المسؤولية الاجتماعية بأجهزة "مختصة" بالرقابة على الحرية الفكرية... حينذاك يجب قراءة الفاتحة على صريح البحث العلمي والابتاع والاكتشاف. وعموماً، خصوصاً انا كانت هذه الاجهزة نفسها في مئذ عن كل محاسبة ديوقراطية وشعبية على سلوكها واعمالها.

5 - التكنولوجيا والتفكير العلمي - غالباً ما يظن ان في إمكان الاستغناء - ولو مؤقتاً - عن الإنتاج العلمي الصرف باستيراد التكنولوجيا. ان النتيجة المتعممة لعل هذا التفكير في تحويل المصانع العربية الى مصانع تكنولوجيا مصانع كورنبا في يد الغرب الصناعي. فان لم تراقب هذا الاستيراد بعناية فعلية في المضمار العلمي فإنتي لا أرى نهاية "الاستعداد" - أنتي ازن كلمتي - الغرب لنا.

هناك اخيراً فكرة سائدة تدبو لي على درجة كبيرة من السخافة مفادها انه اذا كان في الإمكان "السماح" لفرع كالغريزباء والكيمياء والرياضيات بالانفتاح والتقدم نظراً الى "حيادها" بالنسبة الى آية المجتمع والسياسة فإنه من الضروري ابقاء "الحجر" قائماً على العلوم الإنسانية والاجتماعية. ان مثل من يفكر هذا التفكير كمثل الذي يعتقد ان في الامكان قيادة قهر اوطنا على بكفاءة وبذكاء مع احتفاظه بعقلية القرون الوسطى، واكتفي بذلك.

هذه الخواطر السريعة ورتبتي وأنا عائد من الاشتراك في المؤتمر الخامس للجمعية الدولية للاقتصاديين الذي عقد في طوكيو في نهاية آب (أغسطس) المنصرم. وان غياب العلماء العرب عن مثل هذه المؤتمرات آثار في نفسي مجداً هو اجس زمرة ومبرحة رأيت من المناسب نقلها الى القارئ الكريم بأسلوب قد تكون غابت عن الجيولوجيا والمعرفة بعض الشيء. وانني اذ اعتذرت عن ذلك سلفاً فأنتي اعتقد ان الموضوع على هذه الدرجة من الخطورة والحيوية بالنسبة الى الاجيال العربية المقبلة ان لم يعد يسمح بعد الآن بمعاملات لا تسمن ولا تقني عن جوع. فقد سلمنا فعلاً سماع كل جيل يردد للجيل الذي يليه: يا لاسف... ان جيلنا هو جيل الضياع... لعلمكم انتم...  
لعل قائل يقول: أين نحن من النفط والاقتصاد والمصارف والمخاريع الصناعية...؟ في رأيي اننا منها في الصميم. ذلك انه حين نقرر فعلاً ونعزم جدياً على فتح ملك البحث العلمي فإنتا سجد انفسنا ننظر الى كل هذه الامور العصرية بغير النظرة التي تعودناها حتى الآن.

● استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة لئال في كيبك، كندا، ومدير مركز اجبات الدراسات الطاقية في الجامعة نفسها، والتصدد السابق لوكالة العلوم الاقتصادية في الجامعة السورية.

الح - هنا مثال على الرؤية المغلوطة التي تؤدي غالباً الى سلم اولويات معكوس. اما الرؤية المعدومة فمررها تاريخ طويل من الغيبة والتعميم على الافكار وحواجز منيعة ضد التفكير العقلاني عبرت - او بالاحرى لم تحاول - حتى الانظمة الاكثر تقدمية عن التصدي لها واقحامها.

3 - الزمن والانتاة - المشروع جاء خصوصاً في البلدان النامية، ان ترغب الفقة الحاكمة في اختصار رحلة التنمية ذات الالف ميل. لكنه من الصعب جدا، ان لم يكن من المستحيل، الفاء الميل الاول بقرار او بتضريح او بظروف والبحث العلمي، تعريفاً وفي ذاته، بشكل رحلة طويلة شاقه الا ان نتكلمه تضاعف مرات عدة خطوات المجتمع النامي، غير ان لاجابة الحاكم ورعيته في الخروج بسرعة من التخلف - انما ان كان فعلاً حريصاً على تحقيق هذا الهدف - قد يجعله ينتظر المتعاقب من البحث العلمي والاحكم عليه راساً بأنه ترف عقلي لا طائل تحته، وهكذا حكم كليل بدفن كل باذرة علمية في المهمل. ذلك ان أي فكرة لا يمكن لها ان تبين وتعطي ثمارها من دون اناة في السلوك ومن دون حذب وتعهد دائمين يجعلان معنا حلقة في سلسلة متتابعة الحلقات، وان تراكم البوار العلمية هذه على شكل منظم ومصنف يخلق ما يسمى بالتقليد العلمي الذي انا انتفي من مجتمع انتفي معه احد الحوافز الاساسية للتقدم. فمحاورة الزمن لا تعني ابداً تأجيل اتخاذ قرار لا بد وان يتخذ يوماً وانما السرعة في اتزاده اليوم مع العلم ان نتاكتجه لن تظهر الا بعد سنين طويلة.

ما هو المشروع العلمي المستقبلي الذي تضارفت جهود الدول العربية على تحقيقه بعد ان تعاطفت على البعض منها سيول الدولارات؟  
اين الحضور العلمي العربي؟ من يهتم به؟ من يبراه؟ في السابق كانت "تعمية الشيطان" انه ليس في استطاعتنا عمل شيء لانا فقراء في الدولارات... والآن؟  
من المناسب، والوضع على ما هو من تامة، لفت الانتظار نحو الاسباب التي وقفت وتقف حالاً في وجه التقدم العلمي العربي والتي تتجاوز في اغلبها عقبة التمويل.

3 - الكفاية والالتزام - ان الهامات العلمي اما ان يكون عالماً واما ان يكون طقيلياً، او دجالاً. وكل تصنيف غير هذا التصنيف ان هو الا تصويب وزيف لن يقوياً على الزمن، ولعل الناء السليم الذي اصيبت به أمة العرب منذ استقلال دولياتها الواحدة بعد الأخرى هو تقويم الالتزام السياسي او المكافدي على الكفاية ليس في شؤون الازارة والاقتصاد فحسب بل حتى في شؤون الجامعات والبحث العلمي. فكانت النتيجة قتل كل ابداع قبل ان يترعرع وتحويل اغلب الجامعات العربية الى معاهد يفتالية انتفى منها سوق المعرفة وتوتر النطق الى الحقيقة والسعي نحو اكتشافها. وهكذا هل الحكم مكان التكيف واعبر عدد الطلاب وكأته مؤشر على التقدم العلمي في حين انه ليس سوى مؤشر على ضيعة التعليم وانتشاره الفقياً. وعلى رغم ان هذا الانتشار يمكن اعتباره ضمن شروط معينة، وكأته انجاز مهم وتقدمي فمن العسير جدا النظر اليه وكأته تقدم في مجال البحث

اقتصاد لا تعوزه الموارد الطبيعية، ومنذ فترة رأس المال النقدي، ونراه مع ذلك يهتفر في انجاح عملية تنميته بأقل كلفة نظراً الى تضلف العنصر البشري لديه مما يضطره الى استيراد منتجات هذا العنصر (من تكنولوجيا ومعرفة وخبرات... من البلدان الصناعية المتقدمة. لهذا السبب فان كل حديث جدي عن موضوع "طاقة استيعاب" البلدان العربية من الرساميل يجب ان ينطلق من تخلف هذا العنصر البشري: اسبابه، مقومات تاهيله وطريقة هذا التاهيل والسياسة الفضلى حياله.

ومن المعروف ايضاً ان احدي المقومات الرئيسية لتاهيل هذا العنصر البشري تكمن في تقدم البحث العلمي في شقيه الاساسي والتطبيقي، فمأنا فعلت الحكومات والمؤسسات الرسمية العربية في هذا المضمار، وما هي العقبات التي ازلتها عن طريق سدتها اطرافها منذ تكب العرب عن مسابرة العلوم بعد ان كانوا من اساطينها؟

1 - الرؤية والاولويات: متى اتعمدت الرؤية اي التصرف في النتائج البعيدة لكل قرار او سلوك بالنسبة الى الهدف المنشود، ضاع مفهوم الاولويات، ورؤية المسؤول السياسي العربي عامة للبحث العلمي هي رؤية مغلوطة او معدومة. مسؤول سياسي كبير في بلد عربي قال لي يوماً: في هذا الصدد جملة جديرة بالتسجيل: "... البحث العلمي لا يمكننا ان نعتمده الا ان ضمن اولوياتنا ذلك اننا في حالة حرب". لم أحاول ان ابرهن لهذا المسؤول ان هناك عوكة مباشرة بين البحث العلمي وآلية العرب، اكان ذلك من الناحية التكنولوجية ام من الناحية الاستراتيجية وان العرب قد تربع عن طريق البحث العلمي او كيف يمكن لها ان تربع عن هذا الطريق. لم أحاول كل ذلك لان هذا المسؤول كان من المؤمنين بسياسة المصارفات بشكل لا يقبل الجدل ولا النقاش على رغم حرصه على ترصيع جملة عبارات التتمجح العلمي "والخطة المدروسة..."

في خضم "الترودولارات" وفي معمعة البحث عن "أفضل الطرق" لتدوير... كما يقال اليوم - رأس المال العربي، نسيبنا الاساسي وورقنا في التفاصيل، والاساسي في نظري على الأقل، يتألف من واقعة مادية وسؤال مصري.

● الواقعة المادية هي ان منابع النفط، مهما طال امد استنمارها، وهو على كل حال قصير نسبياً، فأنتا ولا بد صائرة الى نضوب وزوال هذه واقعة لا شك فيها ولن تفلح في ازالها لا المصارفات ولا العقائد ولا المواظف ولا التعاون.

● اما السؤال المصري، الناتج مباشرة عن هذه الواقعة المادية من جهة ومن الوضع العام للاقتصاد والمجتمع العربيين من جهة اخرى، فيمكن له ان يطرح على الشكل الآتي: ما السبيل، عن طريق ربح هذا النفط الزائل وغير المتجدد، الى بناء اقتصاد ومجتمع متجددين تدعمهما الى الامام قوى وحوافز متجددة ذاتيا كي لا نقول تلقائياً؟

الاجوبة التي اعطتها حتى الآن، البلدان العربية عامة وأغلب البلدان النفطية على وجه الخصوص عن هذا السؤال تبدو لي وكأتماء، في اغلبها، خارجة عن الموضوع القومي المطروح. فلا استيراد المصاريف الصناعية العمالية ولا عقد الصفقات وتصريفات المانية الخالية يمكن له ان يعتبر، في ذاته راء ملاكاً وسلماً على تصدي هذا السؤال، وأنتي ان يبين، ولكن بعد قوات الأوان، ان مال كل هذه "الحركة" الاقتصادية التي يعيها الاقتصاد العربي اليوم هو فعلاً، "التدوير" وليس التنمية. تدوير الرساميل وتدوير اصحابها كذلك فيكون النفط العربي والامال العربي قد ساهما في خلق فقة من رجال الاعمال العرب يصولون ويجودون في اسواق العالم الواسع بينما المجتمع العربي يراوح مكانه وهو اسير تخلفه وتأخره.

وما يجرى اليوم على صعيد السياسة والحرب، فقيل سابقاً على صعيد السياسة والحرب، فقيل 1977 كانت الفكرة الشائعة ان الحرب تخاض بالمصارفات وتربح بالكلام. ثم جاءت المعركة فأدرك الجميع حينذاك ان الحرب قضية جدية وان الحرب مع اسرائيل بالذات أمر له خطورة تقرب من العنصر. كما ان التصرب كذلك في الاقتصاد، فالنتيجة الطبيعية اما ان تكون عملية غلابة طويلاً الامد واما لا تكون، وهي حتماً ان تكون انا غابت عنها فكرة تأسيسية، جامعة وعريضة النظر عن اسس هذه التنمية ومحتواها وروحها.

الانسان ركن التنمية ومن المصروف على رغم ان اغلب المسؤولين العرب يعلمون ويفررون وكانهم يجعلون ذلك، ان اساس التنمية ومؤادها وشرطها لازم كان ولا يزال الانسان او، بلغة الاقتصاديين، العنصر البشري. انه العنصر الوحيد الذي يتخضع فعلاً بصفتي التحد والاباء من مونه تبقى عناصر الانتاج الأخرى (الموارد الطبيعية ورأس المال) جدياء جامدة. معه تتألف هذه العناصر وتتوحد بعضها مع بعض، بموجب معايير وموازن مختلفة باختلاف الحوافز والدوافع التي يفرها المجتمع او التي تصح بها مؤسساته، فتنتج الناتج القومي سنة بعد أخرى.

ويمتدنا ما يكون هذا العنصر البشري مؤلماً وخبيراً تتزاد احتمالات التنمية المركبة والاقتصادية وقوعاً. وهنا صريح في كل الانظمة الاجتماعية، اشتراكية كانت ام رأسمالية، والاقتصاد العربي يقدم اليوم برهناً ساطعاً على ما أسوكه، فما نحن امام